الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

مقالات حصرية نشرت في المجلة

لـ ٣٥ عالماً من علماء الأمة الإسلامية وأعلامها

ما بين عامي ١٣٨٥ هـ - ١٤٢٦ هـ

الجزء الأول

الإصدار الرابع عشر

الوعي الإسلامي

١ مقالات

الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الإسلام والمجتمع المثالي (١).

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

٢- الإسلام والمجتمع المثالي (٢).

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) - أكتوبر (١٩٦٥م).

ترجمة الشيخ
محمد محيي الدين عبد الحميد

● **مولده:**

ولد الشيخ/ محمد محيي الدين عبد الحميد في قرية كفر الحمام بمحافظة الشرقية سنة (١٣١٨ هـ- ١٩٠٠م)، ونشأ في كنف والده العالم الأزهري الشيخ/ عبد الحميد إبراهيم الذي كان من رجال القضاء والفتيا.

حصل على شهادة العالمية النظامية مع أول فرقة دراسية تنال هذه الدرجة وفق طريقة دراسية منتظمة، وذلك في سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م).

عمل مدرسا بكلية اللغة العربية بالأزهر، ثم مدرسا في قسم الدراسات العليا، ثم وكيلا فيها، ثم مديرا لتفتيش العلوم الدينية والعربية، ثم تقلد عمادة كلية اللغة العربية.

اختير في لجنة الفتوى بالأزهر، ثم تولى رئاستها، ثم عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم رئيسا للجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وكان عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر.

حقق وشرح الآجرومية، وقطر الندى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب، وغيرها من كتب الفقه والأصول والحديث وعلم الكلام والتاريخ الإسلامي.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في ٢٥ ذو القعدة ١٣٩٢هـ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩٧٢م، تاركًا خلفه إنتاجا خصبا لا تزال الأجيال تنتفع بما فيه.

الإسلام والمجتمع المثالي (١)

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

أثارني إلى الكتابة في هذا الموضوع عاملان، لكل واحد منهما وزنه وقيمته، ولكل واحد منهما دوافعه وآثاره.

أما أحدهما فإنه قد استقر في ذهني مما أسمعه من رجالات الغرب، الذين قدر لي أن ألقاهم، ومن إخواننا العرب الذين يذهبون إلى هناك ويتصلون برجالاتهم، ويعيشون في مجتمعاتهم، ثم يعودون إلينا، فينقلون لنا صورة عنهم تمثل أفكارهم وحياتهم، ثم ما أقرأه فيما يترجم لنا من مؤلفاتهم في الأدب والاجتماع.

أن بلاد الغرب تعيش اليوم في حيرة وفي اضطراب وفي قلق ذهني، وأن معنوياتهم وروحانياتهم ومقدساتهم التي عظموها الأحقاب الطويلة ليس لها اليوم استقرار في نفوسهم ولا ثبات، وأن عوامل كثيرة تتجاذبهم فتميل بهم ذات اليمين مرة، ثم تميل بهم ذات اليسار مرة أخرى، وقد بلغ بهم الحال أن تزلزلت عقائدهم التي استمسكوا بها فترة طويلة من الزمن، والتي غزوا من أجلها بلاد الشرق غزوا مسعورا، وقد تدفعهم هذه الاضطرابات النفسية وهذا القلق وهذا التأرجح إلى البحث عن عقيدة أخرى أدنى إلى أحكام العقل، وأقرب إلى مسايرة الحياة التي ينشدونها، كما قد يدفعهم كل ذلك إلى اطراح العقائد ونبذها جملة، والارتماء في أحضان الإلحاد والفوضى والإباحية، فيصعب العلاج وتنتكس الإنسانية، ويعود الناس في العالم أشبه ما يكونون بقطعان من وحوش الغاب.

وأما العامل الثاني فإني شعرت بأن الناس في الشرق، مهبط الرسالات السماوية، قد شرعوا ينفضون عنهم غبار الرقدة الطويلة التي فرضها عليهم

الاستعمار، وأخذوا يبصرون أحوال أنفسهم وأحوال الناس من حولهم، وأن دين الإسلام الذي يدين به أكثرهم، هو في جملته وتفصيله دين الفطرة السليمة والعقل المستقيم، فلو صح وعيهم ثم استقام تفكيرهم، وأحسنوا الدعوة إليه، وقاموا بما أوجبه الله عليهم من التفقه فيه والبشارة به، وتكاتف ذوو البصر من أمرائهم وعلمائهم على الدعاية له بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال المبني على الأساليب الحديثة، رجونا من وراء ذلك كله خيرا عظيما.

● **حاجة البشرية إلى الإسلام**

رأينا أهل الفكر في العالم اليوم على أحد حالين: أولهما: تردد وشك وحيرة وتفكير طويل ورغبة ملحة في طلب الخلاص من هذا التردد وهذا الشك وهذه الحيرة.

وثانيهما: انتفاض ووعي وشعور بالمسؤولية، وإحساس خفي بواجب طال إهماله، فما هو إلا أن يتفق أصحاب هذا الانتفاض وهذا الوعي وهذا الشعور وهذا الإحساس على أن يؤدوا ما فرض الله عليهم من فهم دينهم فهما صحيحا، وعرضه على الفريق الأول ميسرا مجلوا مدعوما ببيان ما تحمله تعاليمه من أسباب العزة والقوة والمساواة والمحبة إلى درجة الإيثار، فإذا هم مقبلون عليه راغبون فيه، لأنهم سيتحققون من أنه الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لراحة نفوسهم، وثلج صدورهم، وتخليصهم من أرباق الحيرة والتردد والشك، والوصول بهم إلى حياة وادعة ومعيشة طيبة مستقرة.

ورأينا مع ذلك تهافت أصحاب المبادئ المتطرفة على غزو بلاد الإسلام والشرق عامة في عقر ديارهم طورا باسم الاقتصاد، وطورا باسم العلم، لأنهم أيقنوا أن الغزو السياسي قد أصبح مما لا مجال له اليوم، وهم فيما بين هذا وذاك يدسون ويكيدون كيدا مستورا، وقد يستطيعون بدسهم وكيدهم وخداعهم أن يزلزلوا أفكار كثير من أهل الشرق، وأن يميلوا بأفكار قوم آخرين منهم إلى حالة من الفوضى والاضطراب والاختلاط، ليست بأقل خطرا من حالة الأولين، فلو أن ذوي البصيرة من المسلمين وأهل الشرق عامة أخلدوا إلى الدعة والراحة

ورضوا من الغنيمة بسلامتهم في أنفسهم، لأوشك الخطب أن يتفاقم، واستحال بعد ذلك رأب الصدع، ولم يبق في مقدور أحد أن يتلافى الشر الجارف أو يجنبه نفسه وأهله ومواطنيه.

نحن في بلادنا نتعرض كل يوم لخطر لا نحسه، لأنه يدب فينا دبيبا خفيا، ونحن أحرياء أن نبحث وندقق في البحث ونطيل التدقيق، لئلا يدهمنا الخطر. ونحن بما فرض علينا من الدعوة للإسلام، وبما انبعث فينا- أو في جماعة منا- من الوعي الصحيح ومن الطموح إلى اجتذاب النفوس الحائرة، أو التي على مفترق الطرق، أحرياء أن نهب هبّة عاقلة حكيمة نقيم بها العذر لأنفسنا، ونعلن بها أننا لم نهن ولم نضعف، وأن الهبة الكبرى التي هبها أسلافنا الأمجاد فملأوا بها العالم نورا وهدى وقوة، كانت من طبيعة ديننا الحنيف، وأن الركود والاستكانة والجمود التي حلت بنا في أيام سالفة كانت مجلوبة طارئة يسَّر لها نسياننا أو تناسينا لتعاليم هذا الدين، وأن الجالب لها المدبر لأسبابها الساعي لبلوغها غايتها هم أعداء هذا الدين من ذوي القوى المادية بقصد أن يموهوا على الناس ويفهموهم أن ديننا هو سبب ذلك الركود وهذه الاستكانة وهذا الجمود، وفاتهم أن العلة الواحدة لا تكون علة للشيء ولنقيضه، وأنه قد ثبت ثبوتا لا يحتمل الجدال أن هذا الدين بتعاليمه الصحيحة قد أخرج أمة من ظلمة الشرك والتقليد ومن تيه الفوضى والضلالة ومن عماية الانحلال والتفكك إلى نور التوحيد، وتمجيد العقل، وإلى جادة النظام والهداية، وإلى بصيرة الوحدة والقوة والتدافع لاحتلال أسمى مكانة وفرض سلطانها على رقعة الكون المعروفة يومئذ، فمحال أن تكون هذه التعاليم هي السبب في الرجوع إلى ما يزعمون من الفرقة والعجز والفوضى والاستغلال.

● الإسلام دين الفطرة

إن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وهو الدين الذي يتفق وما تقتضيه بدائه العقول البعيدة عن الهوى وما تشتهيه الأنفس، ولن يجد باحث يتخذ العقل معيار أحكامه دينا مجد العقل وجعل له منزلة فوق كل منزلة، وندد بمن يميل مع الهوى ومع مألوف العادات والمتوارث عن الآباء والأسلاف، لن يجد

الباحث دينا كدين الإسلام جعل من شرط صحة الإيمان بالله تعالى أن يعرف المؤمن الدليل العقلي على وجوده سبحانه، وعلى اتصافه بصفاته التي يجب أن يتصف بها كالقدرة الشاملة والإرادة النافذة، وقضى أن من لم يعرف هذا الدليل بعقله ويجزم به جزما لا يقبل التردد لا يكون مؤمنا ناجيا. وأعداء هذا الدين لا ينكرون هذا، وهم يعرفونه في قرارة أنفسهم، ويؤمنون أن أهل هذا الدين إن رجعوا إليه صافيا نقيا واتبعوا تعاليمه من أعماق قلوبهم حتى خالطت حلاوته شغافها عاد لهم مجدهم وارتفعت كلمتهم ودان سلطان أعدائهم، هم يعلمون ذلك كله، وهم يخشون أن تذهب ريحهم، فهم لذلك حريصون على أن يفرقوا كلمة أهل هذا الدين وأن يحولوا بينهم وبين الرجوع إلى ما كان عليه سلفهم.

لذلك كان من أول الواجبات على أولي العلم من أتباع هذا الدين، وعلى ذوي السلطان منهم من الرؤساء والأمراء والقادة والزعماء، أن يبصروا قومهم، وأن يبينوا لهم دينهم على ما كان عليه رسول الله وأصحابه المهتدون بهديه، ولذلك رأينا أن نستهل هذه الأبحاث بالبحث عن صفات المجتمع المثالي الذي يحبه الله تعالى ورسوله صلوات الله عليه.

ويقتضينا هذا البحث أن نتعرف الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها في ذات نفسه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من أفراد أسرة، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد حي يسكنه جماعة من مواطنيه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد قرية أو مدينة من مدن وطنه، وعن الصفات التي يجب على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من الأمة كلها. فهذه خمس حالات نرانا مضطرين إلى الوقوف عند كل حالة منها وقفة قصيرة لنتدبرها ونبين تعاليم الإسلام فيها. وسنذكر النصوص الواردة عن الله تعالى وعن رسوله صلوات الله عليه في كل حالة من هذه الحالات.

ونبادر فنعلن قبل الإفاضة في البحث أننا لن نستوعب استيعابا نستطيع معه أن

نقول إن هذه الصفات هي كل ما يريده الإسلام من المسلمين، ولكنا ذكرنا في كل حال أوضح الصفات وأظهرها، وما يعد نموذجا صالحا منها، وما لعله يعتبر أساسا لما لم نذكره أو باعثا حثيثا على التخلق بغيره من صفات الكمال الإنساني.

● **الهدف من التكاليف**

وقبل أن نأخذ في بيان ما تيسر لنا بيانه نقرر أن المقصود الأهم من التكاليف الشرعية في دين الإسلام، هو تربية الضمير الإنساني بصقل النفس وتنقيتها من الأثرة والأنانية والجحود والاستغلال والجبرية والميل إلى الهوى، وتعويدها حب الحق وإيثاره، وإعلانه ما كان في إعلانه مصلحة، وذلك يفضي بها إلى أن تعلم أن ما خفي على الناس لا يخفى على الله، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن الإفلات من العقوبة الدنيوية العاجلة قد يكون سببا في شدة العقوبة في آجل الحياة أو فيما عند الله، وما لم يجد المسلم عباداته موصلة إلى خشية ربه وإخباته له وإقباله عليه، وأنها حاملة له على ترك النقائص والابتعاد عن الآثام فليعلم أنها عبادات صورية لم تنفعل بها نفسه فلم تؤت ثمرتها التي أراد الله تعالى أن تؤتيها، وانظر إلى قوله سبحانه ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت: ٤٥). ثم انظر إلى قوله جلت كلمته: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (التوبة: ١٠٣). ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ (البقرة: ١٨٣). فإذا أنت نظرت في هذه الآيات ونحوها من كتاب الله تعالى وجدت كل عبادة من العبادات التي كلف الله بها عباده قد أراد أن تنفعل بها نفس المكلف حتى يكون لها تأثيرها، وهي وسيلة من أعظم الوسائل لتهذيبها وتطهيرها، والله أجل من أن ينظر إلى صور العبادات، وقد أراد أن تكون مما تقرب منه وتدل على خلوص قلب المكلف له، ولتفصيل هذا الكلام موضع غير هذا، لعل الله جلت قدرته يهيئ لنا ما نوفيه حقه من

البحث في وقت قريب.

وموعدنا لتفصيل الكلام في الحالات الخمس التي أشرنا إليها في عدد قادم إن شاء الله.

الإسلام والمجتمع المثالي (٢)

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

ونأخذ اليوم بيان الصفات التي أراد الله ورسوله للمؤمن أن يتصف بها في نفسه، ونود- قبل أن نفيض في بيانها- أن نلفت الذهن إلى بعض ما قدمنا الإشارة إليه، وهو أن المقصد الأسمى من التكاليف الشرعية هو وصل ما بين المؤمن وربه، وتوثيق هذه الصلة حتى يصير مراقبا له في كل ما يأتي وما يذر، وحتى يعلم أنه سبحانه هو وحده النافع الضار، وأن يثق بأن الناس جميعا لو اتفقوا على أن ينفعوه بشيء لم يرده الله لم يستطيعوا السبيل إلى ذلك، وأن الناس كلهم لو أجمعوا على أن يضروه بشيء لم يرده الله ما استطاعوه، ولذلك تجد التكاليف الشرعية كلها قد اشترط لصحتها أن تسبق بالنية وأن تتصل هذه النية بها، ومن أجزاء هذه النية أنه يفعل هذا الفعل خالصا لوجه الله تعالى، وهو يبدأ صلاته بقوله «الله أكبر» ويأخذ في نية صومه «إيمانا واحتسابا لوجه الله تعالى» ويبتدئ أعمال حجه بعد النية بقوله «لبيك اللهم لبيك» وهكذا كل عمل من أعمال البر، فإذا لاحظ العبد ذلك ظل مراقبا لربه عالما أنه مطلع عليه، فإذا استمر على هذه الحال طهر قلبه فصار نقيا صافيا خالصا من أدران المادية وما يجره التعلق بالمادية من الحقد والحسد والتباغض وإضمار الشحناء والكيد والوقيعة، وطهرت نفسه فأصبحت قريبة من الكمالات الإنسانية، من نحو المودة وحب الخير للناس إلى حد الإيثار والتضحية في سبيلهم، وما لم يؤد فعل التكاليف الشرعية إلى ما ذكرنا من طهارة القلب وزكاة النفس فإنها تكون قليلة الحظ من القبول، فلينظر المؤمن إلى نفسه، فما لم يجد قلبه مشرقا، وما لم يحس بأن حظوظ الشيطان قد فارقته، وما لم يجد نفسه أنه لا يضمر غير ما يظهر، وما لم

يجد أنه لا يأتي من أعمال البر شيئا إلا رغبة في عمل البر ومرضاة لربه وطلبا لنفع الناس في غير امتنان على أحد منهم ولا حبا في مثوبتهم، ما لم يجد ذلك كله من نفسه فليعلم أنه لا يؤدي ما يؤديه من التكاليف على الوجه الذي أراده الله، وأن أداءه هذه التكاليف قليل الجدوى وقليل القبول، وهذا سر من أسرار قوله ﷺ: «رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» أو كما قال.

ثم نقول:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرضت لصفات المؤمن التي يجب عليه أن يتصف بها نفسه، ونحن لو تتبعنا هذه الآيات كلها وبينا ما في كل آية منها طال بنا القول طولا نخشى أن يمله القارئ فلنجتزئ من ذلك بموضعين من القرآن الكريم ذكر الله تعالى فيهما جماع ما ينبغي للمؤمن أن يتصف به.

● الموضع الأول

الآيات الكريمة التي في آخر سورة الفرقان، وذلك قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

● الموضع الثاني

قوله تعالى في مفتتح سورة «المؤمنون» ﴿۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى

صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١-١١).

تضمنت هذه الآيات الكريمة ثماني عشرة خصلة من خصال المؤمنين، من ذلك في آيات سورة الفرقان اثنتا عشرة خصلة، والخصال الباقية في آيات سورة «المؤمنون»، ولكن مجموع المذكور فيهما من الخصال عند التحقيق خمس عشرة خصلة، وذلك لأن خصلتين منها قد تكررتا في الموضعين وخصلة أخرى ذكرت في آيات سورة «المؤمنون» مرتين ذكرت في كل مرة منهما بناحية من نواحيها والموضوع العام في الموضعين واحد.

ومما يحسن التنبيه له أن في القرآن الكريم مواضع كثيرة نص في بعضها على خلال من هذه الخلال، ونص في بعضها على خلال أخرى غير هذه الخلال، ولكنا نعتبر هذه الخلال الخمس عشرة نموذجا عاليا لما يجمل بالمؤمن أن يتخلق به، ولما لو تخلق به إنسان لجره إلى جميع خلال البر والتقوى، والخير يدفع إلى الخير، فإذا اكتفينا ببيان هذه الخصال وبيان ما تجلبه لمن يتصف بها من كمال نفسي وإشراق روحي يستتبعان الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها كنا كمن أخذ من الأمر بلبابه وكمن وضع يده على مفاتيح الخيرات كلها فهو يطرقها من أي الأبواب أراد.

● الصفة الأولى

التواضع، وقد كنى الله تعالى عن هذه الصفة بقوله سبحانه في آيات سورة الفرقان ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) كما كنى عن ضدها- وهو التعالي على الناس والاستكبار والجبرية- بقوله جلت كلمته في سورة لقمان ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ (لقمان: ١٨) وكنى عن ذلك مرة أخرى في سورة الإسراء بقوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

والتواضع أسمى معايير الكمال النفسي، وهو من صفات الأنبياء والمرسلين، وهو صفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من علم لأنه يعلم أن كل ما أوتيه من علم فهو قليل بالنظر إلى ما لا يزال مطويا عنه، وعسى أن يكون عند غيره ممن هو أقل منه ما لا عِلْمَ له به، فإذا تيقن ذلك كله اندفع يطلب علم ما لم يعلم، ولم ير غيره ممن لم يذع له صيت في العلم أقل من أن يأخذ عنه.

وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك في قصة موسى والعبد الصالح حيث دفعه إلى أن يقول للعبد الصالح ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (الكهف: ٦٦)، واحتمل في سبيل هذا- وهو نبي يكلمه الله- أن يقول له العبد الصالح ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الكهف: ٦٧-٦٨)، كما أن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من مال وفير وجاه خطير، لأنه يعلم أن الله لو شاء لجعل ما في يده في يد غيره ممن هم في حاجة إليه وجعله هو صاحب الحاجة إلى هؤلاء، كما أنه يعلم أن المال غاد ورائح، ورب حادثة لا يلقي لها بالا اجتاحت هذا المال كله في طرفة عين، فإذا علم مع ذلك أن الذكر بالخير باق على الدنيا ما بقي فيها ناس، وأن ثواب الإنفاق في الخير أعظم ربحا وأكثر فائدة من اكتناز الأموال، واستيقنت نفسه ذلك اندفع ينفق في سبيل الله تعالى فنال خير المثوبة، وقد ضرب الله لنا مثل من اغتر بماله وزعم أن حذقه وخبرته بضروب تثمير المال سبب ما عنده فلم يرع فيه حق الضعفاء والمعوزين، ثم كانت عاقبته ما ختم الله به قصته في سورة القصص، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

بالجملة فإن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بشيء عنده مما يتميز به بعض الناس من جاه أو مال أو رفعة نسب أو صحة أو قوة جسم أو بسطة علم أو نحو ذلك، وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في هذه الصفة، فقد كان يكون في مهنة أهله، وقد كان يحمل حاجته بنفسه ويقول: صاحب الحاجة أحق

بحملها، وقد كان يأكل على الأرض، وقد كان يقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد، ويقول: أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد، كل ذلك وهو رسول الله وصفوته من خلقه أجمعين وهو من أشرف العرب نسبا وأرفعهم بيتا، وقد كان يجالس المستضعفين والموالي، حتى إن صناديد قريش رغبوا له أن ينحي عن مجلسه هؤلاء الموالي ووعدوه إن نحاهم أن يدخلوا في دينه - وكان ذلك أحب شيء إليه - فكان أن أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الانعام: ٥٢-٥٣)، وقد رغب رسول الله ﷺ في التواضع في غير حديث، وحذر من الكبر والتعالي والجبروت والزهو والخيلاء في غير حديث، فمما ورد عنه من الحث على التواضع وبيان ما أعد الله للمتواضعين في الدنيا والآخرة ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٢٨٥) ط بولاق، كتاب البر) من قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه» ومنه ما رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٤ ط بولاق - ١٠/ ٤٠٨ بهامش فتح الباري ط بولاق) ورواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٤ ط بولاق) من قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»، العتل - بضم العين والتاء وتشديد اللام - الأكول المنوع. والجواظ - بفتح الجيم وتشديد الواو - فسروه بالجموع المنوع، وفسروه بالقصير البطين، وفسروه بالكثير اللحم المختال في مشيته، وفسروه بالغليظ الفظ، والمستكبر - ومثله المتكبر - الذي يتشبع بما ليس عنده أو الذي يستعلي على الناس يرى أن ما عنده خير مما عندهم وهو الذي يقول الله تعالى في شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥)، ومنه ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٣ ط بولاق - كتاب الجنة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون، والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها» وصدق رسول الله ﷺ، فإن الجبار ما يزال يعنف بالناس، ويشتط في معاملتهم، ويأخذهم بالقسر والإعنات حتى يسلبهم حقوقهم، ويدفعهم عنها، وقد يسلبهم أموالهم وأرواحهم بغير حق فيتفاقم الشر، وتغدو الحياة إلى جواره جحيما لا يطاق، فكان جزاؤه أن جعله الله في العذاب الأليم، وإن المتكبر ما يزال يتيه بنفسه، ويزهي على الناس، ويحتقرهم حتى يهون أمرهم عليه، وحتى يرى أنه لا يدانيه أحد فلا يبالي - بعد أن تتأصل في طباعه هذه الخلال - أن يعتدي على من يعاشرونه، وما أبدع ما وصف الله به المتكبرين في الآية التي تلوناها أول الكلام على هذه الصفة من سورة لقمان وفي الآية الأخرى من سورة الإسراء، ثم ما أروع هذه السخرية بالمتكبر التي ختمت بها آية سورة الإسراء ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

نعم إنه - مهما يشمخ بأنفه ومهما يتعال برأسه، ومهما يتطاول ببدنه - لن يبلغ الجبال طولا، وإنه مهما يدب بقدميه، ومهما يثقل ببدنه لن يخرق الأرض، فليكفكف من غلوائه، وليترك تيهه وتعاليه، وليكن مع الناس يفيدهم ويفيدونه، ويتعاون معهم ويتعاونون معه، فالإنسان قليل بنفسه مهما يعظم قدره، كثير بإخوانه، وقد تقتل الفيل نملة، وقد تموت الأفاعي من سموم العقارب.

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بقدر أنفسنا، وأن يباعد بيننا وبين البأو والصلف والكبرياء.. إنه أكبر مسؤول، وإلى عدد مقبل نأخذ فيه في بعض ما بدأناه، إن شاء الله.